شعر الغزل في العصر العباسي

لقد أكثر العباسيون من الغزل إكثاراً مفرطاً وأبقوا المعاني التقليدية القديمة محاولين بثَّ إحساسهم وعواطفهم التي أُرهِفَت بسبب طبيعة حياتهم المتحضرة ، ومضى الغزل في العصر العباسي في اتجاهين:

الأول – الغزل الصريح

الثاني – الغزل العفيف أو الغزل العذري.

وكان الأول أكثر انتشاراً وشيوعاً بسبب كثرة الإماء والقيان والمغنيات في تلك البيئة ، وقد تجاوز الشعراء العباسيون الحدود الاجتماعية والقيود الدينية حينما راحوا ينظمون في هذا الغرض غير متقيدين بالوقار والحياء حتى استحدث بالغلمان عند البعض ، على أن الغزل العذري أخذ يضعف شيئاً فشيئاً في هذا العصرفلم يبق له إلاَّ القليل عند أمثال العباس ين الأحنف وبعض الشعراء الآخرين ، وقد امتاز الغزل في العصر العباسي بظواهر ومميزات من أبرزها:

1. كثرة الالتفات الى المعاني الدقيقة واستخراج الأفكار الدفينة من خلال عقليتهم المتأثرة بالحضارة وقدرتهم على استخراج المعاني واستقصائها.
2. تصوير الحسّ المرهف والشعور المترف.
3. شيوع استعمال العبارات اللينة والألفاظ الرقيقة.
4. شيوع الأوزان القصيرة المجزوءة وربما يقف الغناء وراء انتشار هذه الظاهرة ؛ لأنَّ الغزل انشئَ ليكون غناءً.
5. إنَّ كثيراً ممن ينظم الشعراء فيهم هُم من الجواري اللائي كانوا على حظٍّ كبيرٍ من الثقافة وأشاعوا كثيراً من الرقة والظرافة في الغزل فأدّى الى ظهور المراسلات الشعرية وتبادل القصائد بين الشعراء والجواري.

2. عباس بن الاحنف

شاعرٌ من أصل عربي من بني حنيفة ولِد ببغداد ونشأ في نعمةٍ وثراءٍ وعاشَ حياةً مترفة ماجعله ينصرف عن شعر المديحِ الذي كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للعطاء ، اختلط بشعراء عصرهِ أمثال ابي نواس ووالبة بن حباب ومسلم بن الوليد لكنه لم يذعن لما كانوا عليه ولم يتأثر بهم في خلاعتهم ومجونهم ، وكان قد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمقٍ ودون إثم ، يقول عنه العباس بن المبرد: "كان العباس من الظرفاءِ ، ولم يكن من الخلعاءِ ، وكان غزِلاً ولم يكن فاسقاً ، وكان ظاهر النعمةِ ملوكي المذهب شديد الترف ، وكان حلواً مقبولاً غزير الفكر واسع الكلام ، ولم يكن هجّاءً ولا مدّاحاً". ويرى أبو فرج الأصفهاني بأن العباس كان:

"شاعراً غزِلاً مطبوعاً وله مذهبٌ حسنٌ ولديباجةِ شعرهِ رونق ولمعانيهِ عذوبةٌ ولُطفٌ ، ولم يكن يتجاوز الغزلَ إلى مديحٍ ولا هجاء".

لقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيدِ أمامه حتى أصبحَ من ندمائه وتصادف أن التقى جاريةً جميلةً تسمى فوز فدخلت في قلبهِ وعرفت حبه وكانت تصدّ عنه وهو يزداد حباً وشكوىً من أنها لا تُقبِل عليه ، فهو دائماً يصفُ صبابته بها وحبه وهيامه:

الحبُّ أول ما يكون لجاجةً تأتي وتسوق به الأقدار

حتى إذا سلكَ الفتى لُجَجَ الهوى جاءت أمورٌ لا تطاقُ كبارُ

وخرجت من مِلك أمراء البيت العباسي فمضى يبكيها مصوراً حبه لها وهيامه في أشعارٍ كثيرة من مثل قوله من رسالةٍ شعرية أرسلها إليها:

أَزينَ نساء العالمين أجيبي دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريبِ

أيا فوزُ لو أبصرتني ما عرفتني لطول نحولي بعدكم وشحوبي

وأنتِ من الدنيا نصيبي فإن أمُت فليتكِ من حورِ الجنان نصيبي

إن غزل العباس عذريٌّ طاهر نقي ويمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعاني والخواطر ويعمد أحيانا الى الصور البديعية التي تمتزج بقوة العاطفة.

3. أبو العتاهية

ينتمي أبو العتاهية الى النبط الذين يتمتعون بحظ وافر من الذكاء ورقة في الشعور ورهافة في الحس. وتجدر الاشارة الى ان رهافة حسه كان لها أثر كبير فيما كان يعانيه من ضعف صحته بسبب تكوينه الجسماني الذي ظل ملازما له طوال حياته مما انعكس ذلك لينزع بنفسه الى الاغراق في اللهو و المجون ومن ثَم سلوك طريق الزهد أو التظاهر به.

ولد الشاعر سنة130هـ في منطقة (عين التمر) القريبة من مدينة الكوفة، وكانت هذه الفترة تمثل إرهاصاً للانقلاب الذي حدث في حياة العرب والمسلمين والانتقال الى التطور الضخم الذي حصل في ذلك العصر بعد تعرضهم لتياراتٍ شتى من الثقافات والفلسفات ومن العلوم المترجمة والمنقولة. ومثل هذه الفترات تُحدث في نفوس الناس آثاراً عنيفةً من الاضطراب والاختلال، ومما لاشك فيه أن الشعراء هم أكثر الناس تعرضاً وتأثراً بذلك، كما أنهم أشدّ الناس بالاسراع الى التنفيس في مثل هذه الحالات.

اسمه إسماعيل بن قاسم بن سويد وكنيته أبو اسحاق ولقبه أبو العتاهية. هذا اللقب يمت بسبب متينٍ الى اللهو والمجون والاضطراب النفسي، ولذلك كان الشاعر يثور ويتنكر لهذا اللقب ويكرهُ أن يُنادى به. فالتعتّه يعني الدَّهش والمعتوه أي المدهوش من غير مسِّ جنون، وقيل المعتوه أي الناقص العقل، ويقال رجلٌ معتَّه إذا كان مضطرباً من الجنون والعتاهية ظُلاّل الناس. فاللفظة كما نرى تحمل في طياتها معانيَ كثيرة أغلبها لايقبلها الانسان وصفاً له. ومن هنا كان جديراً بأبي العتاهية أن يأبى النداء به. وأول من أطلق عليه هذا اللقب الخليفة المهدي؛ لأنه أحب جارية له أسمها عُتبة فاعتقِل بسببها وحينها قال له المهدي إنك معتَّه أي مضطرب مجنون. وقيل لقب بذلك لأنه كان طويلاً مضطرباً وقيل لأنه كان يرمى بالزندقة وفي موضعٍ آخر قيل لنه كان يحب اللهو والمجون والتعته.

انتقل أبو العتاهية الى الكوفة وهو صغير ونشأ بها، ووجد في الكوفة نشاطاً ضخماً في ميادين مختلفة وكان أظهر ما فيها العقيدة المانوية والتي تجمع بين الزراداشتية والنصرانية الى جانب من الاثار البوذية حيث اصطدم بضروبٍ والوانٍ مختلفة من المجون والاستهتار بالاضافة الى نشاط أدبي ضخم وحركةِ زهد قوية ونِحَلٍ اسلامية ومِلل ودياناتٍ ومعتقدات، كما وجد الشاعر أمامه طائفةً من الشعراء الذين يعيشون في الكوفة أمثال مطيع بن إياس ووالبة بن حباب وحماد عجرد وآخرين كانوا قد ملأوا الكوفة بالخلاعة والمجون ووسِّموا بالزندقة. ولذلك فلا عجبَ أن ينظر اليهم أبو العتاهية ويتأثر بهم فيحذو حذوهم وهو فتىً ناشئ يتطلع في ضوء موهبته الشعرية الى الشهرة والتألق في سماءالكوفة.فيسلك نفس المسلك الذي سار عليه أسلافه من الشعراء، وعليه لم يكن هناك مبرر واحد يجعل ابي العتاهية ينشأ نشأة فيها من الاتزان والتوقر. فهو مولىً نبطيّ وضيع الأصل والنشأة وامثل دناءة نشأته في عمله الذي كان يمارسه يومياً وهو بيع الجرار والفخار، وتتمثَّل أيضاً في ذلك التخنُّث الذي اختاره لنفسهِ اختياراً دون أن يكون مكرهاً عليه فوسَّم نفسه به وهذه الصورة تمثل أبشع وأخبثَ صورة في حياته اللاهية حينها التقى بابراهيم الموصلي الموسيقار الشهير في صدر حياته واستهوى في حداثته امرأة نائحة من أهل الحيرة ذات حسنٍ وجمال يقال لها سُعدى وله فيها أشعاراً يُفحش فيها إفحاشاً قبيحاً مما أثارَ غضبَ مولاها عبدالله بن معن بن زائدة ونهاه أن يعرض لها، انتقل على إثر ذلك الى بغداد واستمر في مجونه وعبثه واتصلَ هناك بأبي نواس ومسلم بن الوليد وسلم الخاسر وشعراء اخرين.

ثقافته وشاعريته

عاش أبو العتاهية في الكوفة حيث كان النشاط العقلي والازدهار الثقافي والفني طاغياً في جميعِ أرجائها وقد أخذ بنصيبٍ وافر من المعارف والثقافات في الكوفة فعاونه على تهذيبهِ الفني وتثقيفه الذاتي آخذاً القسط الأوفر من ثقافته من بغداد حيث كانت تلتقي روافد العلوم والمعارف والثقافات المختلفة، وتعدّ مواهب وتجارب الانسان وخبراته في الحياة عنصرا مهما من عناصر ثقافته ومعارفه، واستطاع أبو العتاهية أن يضمّن شعره الكثير من تأملاته في الحياة والناس، فاتصل بالفلسفة ونهل من مواردها وأفاد من الحكمة والزهد اللذين انتقلا مع ما نُقل من الهندية واليونانية والفارسية.

أفاد أيضا من مصادر غير إسلامية مثل النصرانية والمانوية والبوذية ، وبالنظرة الفاحصة الى مذهبه الفلسفي نرى أنه متأثر تأثراً واضحاً بالمانوية وقوام هذه النزعة الفلسفية أن أصل التكوين يعود إلى مصدرينِ أو جوهرين متضادين وأن مصير العالم اليهما قبل فنائهم ويرى أصحاب هذا المذهب أن في الكون قوتين إحداهما للخير والأخرى للشر. فمن النور نشأ كل خير ومن الظلمة نشأ كل شرّ، وفي رأيهم أن العالم

شرٌّ ؛ لأن امتزاج النور والظلمة فيه شرٌّ. ولذلك يدعون الى الزهد وينزعون منزع الرهبانية فيحرمون النكاح استعجالاً الى الفناء.

موضوعات شعره

اختص ابو العتاهية بفنين من فنون الشعر العربي واشتهر فيهما وهما الغزل والزهد، وأما ماعدا ذلك من المدح والهجاء والرثاء والفخر فلم يكن سوى عاطفة تثيرها المناسبات الخاصة والأحداث الآنية.

أولا – الغزل:

استهل أبو العتاهية حياته الغزلية بأن عشق جارية ذات حسن وجمال واسمها (سعدى) وظل يشبب بها على الرغم من أن مولاها قد تهدده وأنذره، ولم يكن يصل إلينا شعره في التشبيب بسعدى فلعل مولاها كان له أثر في موت هذا الشعر وبعد أن نزل بغداد عشق جارية اسمها (عتبة) فتغزل بها كثيرا في اشعاره، في مثل قوله:

ألا إنَّ ظبياً للخليفة صادني   ومالي عن ظبيِ الخليفةِ من عُذرِ

ويصف ابو العتاهية سحر محبوبته:

وإني لمعذورٌ على فرطِ حُبِها   لأن لها وجهاً يدلُّ على العُذرِ

وتهتزُّ من تحت الثيابِ كأنّها   قضيبٌ من الريحانِ في ورقٍ خُضرِ

أبى الله إلا أن أموت صبابةً   بساحرةِ العينين طيّبةِ النَّشر

كان أبو العتاهية يعاتبُ حبيبته على ما تبديه إزائه من انقطاع وصدود. كما في قوله:

ياعُتبةَ هِجْرُكِ مورِثُ الأدواءِ   والهِجْرُ ليسَ لِوِدّنا بجزاءِ.

ويلاحظُ في غزلهِ كثرة البكاء والشكوى من الهم والأرق. على شاكلة قوله:

عادَ لي من ذكرها نصَبْ   فدموع العين تنسكِب

ثانياً – الزهد:

لقد مرَّ هذا الغرض الشعري عند أبي العتاهية بثلاثِ مراحلَ:

1. اتخذَ الشاعر طريق الزهدِ لتسجيل انطباعاته الذاتية عن الحياة والناس والقيم والاخلاق والاعراف، وهذه المرحلة تكشف لنا عن ماضيه الماجن والعابث ويبكي على شبابه ويكره المشيب.

2. يقف من الناس موقف الواعظ الذي يسلط عليهم زجره ووعيده ويهددهم بالموت والفناء.
3. يقف موقف الحكيم المجرب الذي يسوق الحكم في صورة قراراتٍ قوية يؤكد أنه توصل اليها بعد طول تأملٍ وخبرةٍ وثقافة وهو في كل هذا يحاول الخلط بين المبادئ الاسلامية وبين النزعة الثنوية المانوية.

لقد عبر أبو العتاهية عن رأيه في الحياة ويرى أنها ليست سوى آمالٍ ضائعة وهي شرٌّ وبلاء على العموم، كما يقول:

طلبتكَ يا دنيا فأعذَرتُ في الطلب   فما نِلتُ إلا الهمَّ والغمَّ والوصبْ

فلما بدا لي أنني لستُ واصلاً   إلى لذةٍ إلا بأضعافها تَعَبْ

ويريد أبو العتاهية أن يؤكد في شعره أن الزهد في الدنيا هو الطريق الأمثل حيث هناك الاخلاق التي تمثل كنوزاً من الذهب، كما أن القناعة والعفة والعقل هي أدوات الفضيلة عند الانسان ، ومن ذلك قوله:

وسَرْبَلْتُ أخلاقي قَنوعاً وعِفَّةً   فعندي بأخلاقي كنوز من الذهبِ

ولمْ أر فضلاً تم بشيمةٍ   ولم أر عقلاً صحَّ إلا على أدب

وكان يصور في شعره الزهدي خالتي الشباب والشيب أروعَ تصوير لاسيما إذا استبدَّ به الحنين الى مرحلة الشباب باكياً نادماً على ما قدَّمها من ذنوب على شاكلةِ قوله:

بكيتُ على الشباب بدمعِ عيني   فلم يُغنِ البكاءُ ولا النحيب

فياليت الشباب يعودُ يوماً   فأخبِرهُ بما فعل المشيبُ

ونزعة الجبر واضحةٌ عنده أشد الوضوح، فهو يؤمن بأن التسليم لأوامر الله والرضا بقائه وقدره كعنصرٍ من عناصر الزهد، فيقول:

جفَّت الاقلام من قبل بما   حتَم الله علينا وكتَب

ويلاحَظ في شعره الزهدي سمات فكرية وعقلية تدلُّ على وجود الآثار المانوية التي تتداخل في نفسهِ مع العوامل الاسلامية المحيطة به ، من ذلك القطعة المشهودةِ بـ (ذات الامثال):

لكلِّ شيءٍ معدنٌ وجوهر   وأوسطٌ وأصغَرٌ وأكبر

وكل شيءٍ لاحقٌ بجوهره   أصغرهُ متصلٌ بأكبره

الخير والشرُّ بها أزواج   لذا نتاج ولذا نتاج

لكلِّ انسانٍ طبيعتان   خيرٌ وشرٌّ وهما ضدان

وصورة الزهدِ عند أبي العتاهية لاتخلو أيضاً من آثارٍ اسلامية حين يرى ان الزهد اعتزال عن الحياة وابتعاد عن الناس واقتصارٌ على التقشف، مثل ما وردَ في قوله:

رغيفُ خبزٍ يابسٍ   تأكله في زاوية

وكوزُ ماءٍ باردٍ   تشربُهُ من صافية

معتبَراً بمَنْ مضى   من القرون الخاوية

ومما طغى على شعره الزهدي كثرة ذكر الموت والترقب، فيقول:

الموتُ بابٌ كل ناسٍ داخله   ياليت شعري بعد البابِ ما الدار؟